اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو
Commission nationale libanaise pour l'UNESCO
Lebanese National Commission for UNESCO



حوليات

العدد الرابع - 2015

وقائع ندوة

أزمة المطالعة في لبنان

المداخلات

د.زهيدة درويش جبور *

أزمة المطالعة في زمن الضبابية وفقدان المعنى

تشكّل معارض الكتاب إجمالاً مناسبةً للإطلاع على أحدث ما أصدرته دور النشر وفضاءً يلتقي فيه الناشرون والكتّاب وأصحاب المكتبات والقراء؛ ويمكن، بالتالي، من خلال مراقبة حركتها وأعداد زوارها، وما تحققه من نسب في المبيعات التعرف الى أوضاع النشر لجهة الموضوعات والميادين، كما لجهة إقبال الجمهور على شراء الكتب ومطالعتها. والملاحظ في لبنان، ومنذ سنوات عدة، تراجع في حركة شراء الكتب على الرغم من أن أعداد الزوار، سواء لمعرض الكتاب الفرنسي والفرنكفوني في أواخر شهر تشرين الأول، أو للمعرض الدولي للكتاب الذي ينظمه النادي الثقافي العربي في أواخر تشرين الثاني، تشكّل نسبة مرضية. يجمع المراقبون على أن هناك تراجعاً في الإقبال على المطالعة خاصةً لدى الأجيال الشابة، فيجري الحديث عن أزمة المطالعة وهي أزمة تعود في نظرنا إلى عدة أسباب.

تجدر الملاحظة في هذا السياق أن المطالعة هي عادة تكتسب منذ الصغر وتشكل جزءاً من ثقافة الشعوب. فهي سمة من سمات الشعوب الأوروبية بشكل عام، هم يقرأون في الميترو، وفي الباص، وفي الحديقة العامة، كما يرتادون المكتبات العامة المتواجدة في الأحياء والمناطق السكنية بحيث يكون الكتاب بمتناول الجميع. حب المطالعة يولد في الأسرة ،أولاً، ثم ينمو في المدرسة، لكي يصبح من ثم عادةً مكتسبة.

* الأمينة العامة للجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو. أستاذة جامعية

يتفاوت الاهتمام بالتربية على المطالعة في مجتمعنا اللبناني وفق البيئة الاجتماعية والثقافية والمناطقية. فإذا كانت بعض الأسر المدينية المتوسطة تشجع الأطفال على القراءة وتساعدهم على اكتساب عادة المطالعة من خلال سلوكيات معينة، كأن تكون هدية الطفل في المناسبات كتاباً عوضاً عن لعبة سخيفة، أو أن يصحب الأهل أبناءهم إلى المكتبة العامة إن وُجدت، أو إلى معرض الكتاب للقيام بجولة بين أجنحته، فإن ذلك لا ينطبق على البيئات الفقيرة، ولا على القرى والمناطق النائية، حيث الكتاب يبقى من الكماليات. يُضاف إلى ذلك العامل الاقتصادي وتراجع مستوى الدخل لدى المواطن اللبناني، وانحسار بل يمكن القول اضمحلال الطبقة الوسطى مما ينعكس سلباً على اقتناء الكتب، وبالتالي، على الإقبال على المطالعة.

كذلك يمكن رصد تفاوت بين المدارس لجهة توفر المكتبات المدرسية أو عدمها، ولجهة تنفيذ نشاطات لاصفية على صلة بالكتاب والمطالعة. فالمدارس الرسمية بشكل عام تفتقر لمثل هذه المكتبات، كما أن مواردها المالية لا تسمح لها بتنظيم نشاطات لاصفية تتصل بالكتاب والمطالعة، اللهم إلا ما تيسر.

ثمة من يقول أن النظام التربوي الحديث والمعتمد في لبنان منذ نهاية التسعينيات والذي يرتكز على المتعلم من شأنه أن يشكل عاملاً إيجابياً في التشجيع على المطالعة. فالعملية التعليمية لم تعد تقوم على التلقين بحيث يكون التلميذ مجرد متلقٍ، بل تهدف إلى التحفيز على البحث عن المعلومات لكي يتمّ تحليلها وفهمها وتمثلها وترجمتها من ثم إلى ممارسات وسلوكيات. إلا أن معوقات تطبيق هذا النظام سواء لجهة تأمين التجهيزات اللازمة للمدارس من حواسيب ومكتبات مدرسية وعاملات مدربات في هذه المكتبات، أو لجهة إعداد المعلمين وتدريبهم على المناهج الجديدة، والأوضاع التعليمية التي لا تزال متردية في القرى، كل ذلك ساهم في تعطيل دور المدرسة كبيئة مؤاتية للمطالعة. ناهيك عن أن المقرر الدراسي ثقيل جداً على التلميذ بحيث لا يعود لديه الوقت لممارسة هواية أو نشاط خارج الإطار المدرسي.

وليس وضع المطالعة أفضل في الجامعات على الرغم من توفر المكتبات الجامعية الغنية بالكتب والمراجع. فغالباً ما يُفضل الطلاب اللجوء إلى الإنترنت لتحضير أبحاثهم بالسرعة المطلوبة، لكن بالطبع بتسرع يخفف من قيمة البحث وجديته. فالعصر عصر السرعة ونقرة

واحدة على الحاسوب تكفي لتوفير المعلومات اللازمة لإتمام «واجب» البحث. ولا بد من الاعتراف أن فضول المعرفة لدى الطلاب الجامعيين في تراجع مستمر، باستثناء قلة من المجلّين الذين ينتسبون إلى كليات الآداب والعلوم الإنسانية عن قناعة وبناءً على خيار حر ومسؤول.

يُضاف إلى ذلك تعدد وسائل التسلية والمتع السهلة المتاحة سواء على الإنترنت، أو اليوتيوب، أو الفايسبوك، وحتى التلفاز الذي لا تزال نسبة مشاهدته مرتفعة جداً لدى الشريحة العمرية ما فوق الثلاثين عاماً.

لكن بالرغم من كل ما تقدم ثمة مبادرات جيدة تجدر الإشارة إليها. وهي تتمثل بالأسبوع الوطني للمطالعة الذي تحتفل به وزارة الثقافة في الأسبوع الأخير من شهر نيسان في كل عام والذي أصبح موعداً للاحتفاء بالكتاب، كما تتمثل بنوادي المطالعة التي أنشأتها الوزارة في مناطق عدة ووفرت لها منشطين مختصين، كذلك بادرت بعض هيئات ومؤسسات المجتمع المدني إلى تأسيس مكتبات عامة استطاعت أن تجعل منها مركز إشعاع في محيطها، وفضاء للحوار واكتساب المعرفة من خلال المطالعة. وقد بادرت اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو منذ سنوات ثلاث إلى إطلاق الجائزة الوطنية للمطالعة التي تمنحها سنوياً في إطار أسبوع المطالعة. كما أن جائزة «غونكور لوريان» التي يشارك في لجان تحكيمها طلاب جامعيون من مختلف الجامعات الفرنكفونية في لبنان، والتي أطلقها المعهد الفرنسي في لبنان، كان لها أثر طيب في إثارة الشغف بالمطالعة لدى الطلاب المشاركين.

ختاماً، في زمن التشويش والفوضى واختلاط المفاهيم وضياع القيم علينا أن نعيد إلى ذاكرة الأجيال الشابة قول المتنبي الشهير: خير جليس في الأنام كتاب.

د . ميشال جحا *

خير جليس في الأنام كتاب

يلاحظ المراقب أن عدد القراء في تناقص وذلك بسبب أمور كثيرة أهمها:

أولاً: الأمية المتفشية في العالم العربي

لا إحصاء يعطينا نسبة صحيحة لعدد الأميين ولكن لا شك في أن بعض البلدان العربية تصل فيها معدلات الأمية إلى درجة مرتفعة، مع العلم أن عدد سكان الدول العربية يتجاوز 350 مليون نسمة وهي تمتد من موريتانيا إلى مسقط. وهذه الأمية سوف تزداد بسبب الحروب المستعرة في سوريا والعراق وليبيا واليمن لأنها سوف تحول دون دخول الجيل الجديد الى المدارس في هذه البلدان. حسب اليونيسيف هناك أكثر من 3 ملايين تلميذ سوري خارج المدارس.

ثانياً: ثمن الكتاب

مع أن ثمن الكتاب العربي ليس مرتفعا كما هو لدى الغرب فإنه يبقى كذلك بسبب الضائقة المالية بحيث أن الكتاب يصبح من «الكماليات» لا يستطيع الفقير أو متوسط الحال شراءه.

* أستاذ جامعي ومؤلف

ثالثاً: نحن شعب لا يقرأ

في بلاد الغرب الجميع يقرأ. في القطارات كتب ومجلات للقراءة وكذلك في الطيارات. سائق التاكسي ينتظر دوره وهو جالس في سيارته وفي يده كتاب أو مجلة أو جريدة. في عيادات الأطباء يقرأ الناس وهم ينتظرون دورهم وحتى في صالونات التزيين.

رابعاً: انتشار وسائل الاتصال الحديثة

الجيل الجديد بات اليوم مشغولا بالكومبيوتر والسللر ووسائل التواصل الأخرى التي تلهيه عن تناول الكتاب. قال أحد العلماء من حاملي جائزة نوبل: الانترنت أكبر اختراع أنجزه العقل البشري لإضاعة الوقت.

خامساً: عدم تعويد التلامذة في المدارس على القراءة. وإيجاد حوافز لكي يفعلوا مثل: منحهم جوائز وعلامات تشجيعية وما سوى ذلك والطلب منهم اختصار بعض الكتب التي يقرأونها.

سادساً: عدم وجود كتب خاصة للتلامذة يضعها كتّاب متخصصون في الكتابة إلى الأولاد. هذا فن قائم بحد ذاته. في الانكليزية يوجد سلسلة تدعى «سلسلة السلّم» Ladder System كل كتاب يدل على عدد الكلمات التي يتعلمها التلميذ وهكذا دواليك.

سابعاً: ازمة النشر التي يعاني منها الكتاب بسبب تكاليف النشر وعدم رواج الكتب.

كان المؤلف يطبع 3 آلاف نسخة من كتابه تراجع إلى 1000 نسخة ثم الى 500 نسخة. وكان يتقاضى نسبة 10 أو 12 % من سعر الكتاب كمكافأة. اليوم بات عليه أن يدفع للناشر لكي ينشره له. يمكن حل هذه المشكلة جزئياً بأن تتولى مؤسسات أو معاهد أو جامعات نشر الكتب الهامة المكلفة.

يقول الشاعر الفرنسي الكبير مالارميه: «العالم أساسيا موضوع لكي يصبح كتابا

جميلا.» وليس أشهى من حبر جديد في كتاب جديد. لا تعرف عدد الكتب التي تنشر في العالم العربي. دولة أوروبية صغيرة تنشر أكثر مما تنشره جميع الدول العربية مجتمعة.

ثامناً: ثنائية اللغة

الطالب العربي يدرس اللغة الفصحى ويتكلم العامية. يؤدي ذلك إلى مستويين مما يصعب على الولد التأقلم بين الفصحى والعامية.

تاسعاً: اقفال المكتبات

من الملاحظ أن عدداً من المكتبات أقفلت أبوابها بسبب تدني بيع الكتب. في رأس بيروت أقفلت بعض المكتبات العريقة مثل: مكتبة رأس بيروت ومكتبة «دار الثقافة» وكلاهما في شارع بلس المقابل للجامعة الأميركية في بيروت حيث مستوى المثقفين مرتفع.

إقتراحات حلول

أولاً: العمل على مكافحة الأمية في البلدان العربية بواسطة الزامية التعليم ولو حتى المستوى الابتدائي أو التكميلي. اجاد المكتبات في كل بلدة. استخدام المكتبات المتجولة كما تفعل بعض الدول كي يصل الكتاب إلى القارئ.

ثانياً: اعتماد وسائل حديثة للمساعدة على القراءة. في نيكاراغوا اعتمدوا أجهزة لوحية رقمية تتضمن مكتبة افتراضية للتشجيع على القراءة في صفوف القراء.

ثالثاً: تسليط الضوء على الكتب الجديدة التي تنشر لكي تلقى لدى الناس اهتماماً، بنشر مراجعات عنها في الصحف وإقامة الندوات حولها وتناولها في محطات التلفزة والإذاعة.

رابعاً: إقامة معارض للكتب. في لبنان عندنا عدد منها وخاصة معرض الكتاب الدولي الذي يقيمه أواخر كل سنة النادي الثقافي العربي ومعرض الكتب الذي تقيمه الحركة الثقافية- انطلياس في شهر آذار من كل سنة. هذه المعارض تتيح للقراء شراء بعض الكتب

بأسعار مخفضة. كما تساهم في ترويج بعض الكتب الجيدة وإلى ذلك تشكل نقطة تلاقي للمثقفين والكتاب والباحثين. الحبر أغلى من التبر.

خامساً: اعتماد برامج لتعويد الأولاد على القراءة وتشجيعهم على المطالعة في الاذاعة والتلفزيون وسائر أساليب التواصل، إضافة إلى برامج الرسوم المتحركة التي يهواها الاولاد.

سادساً: ذكرت إحدى الجرائد أن اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو قد أسست الجائزة الوطنية للمطالعة وهي جائزة سنوية تهدف الى التشجيع على المطالعة.

سابعاً: قرأت مؤخراً أنه في مدينة الريو في البرازيل يوزعون الكتب مجاناً على سكان الأحياء الفقيرة لتشجيعهم على القراءة.

الخلاصة

باتت المعلومات اليوم متوفرة عن طريق عدّة إمكانيات. ولم تعد وقفاً على الكتاب وحده. هناك الكومبيوتر والانترنت وغوغل وغيرها. رغم ذلك فان الكتاب لن ينقرض كما أن المكنسة الكهربائية لم تلغ مكنسة القشّ. الكتاب سيبقى ملازماً للمجتمع البشري، وسيبقى كما قال الشاعر القديم «خيرُ جليس في الانام كتابُ».

مريم الحاج *

الإعلام المرئي ودوره في تعزيز المطالعة

أبدأ بالكاتبة البريطانية دوريس لاسنغ والحائزة على جائزة نوبل للآداب في العام 2007 عندما قالت أنه «إذا أردتم لأولادكم أن يقرأوا ضعوا الكتب جانباً واكتبوا عليها عبارة ممنوع». انطلاقا من هذا القول نستطيع أن نقول أنه، صحيح هناك عوامل كثيرة تلعب دوراً في التحفيز على القراءة. ولكن برأيي يبقى للاعلام الدور الأكبر نظراً لقدرته على التأثير عبر استخدامه لأساليب ذكيّة تجذب القارىء. ولنفهم أهمية الإعلام في التحفيز على القراءة لا بد أن نطرح السؤال التالي:

لماذا لا نقرأ؟ لأنه هناك ضعف في الشعور بالحاجة للمعرفة. كيف ومتى نشعر بالجوع المعرفي؟ الجواب هو: إننا نشعر بالحاجة للمعرفة عندما يتعاظم شعورنا بجهلنا؛ لكن هذا يقودنا إلى سؤال آخر: متى نشعر بجهلنا؟ في ظني إننا نشعر بجهلنا عندما نعيش في وسط يميّز العالم من الجاهل، والمثقّف من غيره، وعندما ترتفع قيمة العلم والمعرفة لتصبح معياراً أساسياً في تقييم الناس. أما عندما تغيب هذه القيمة يضمحل الشعور بالحاجة للعلم والمعرفة والقراءة.. وهنا يبرز دور الإعلام في تحفيز القراءة، الإعلام من أهم و أخطر وسائل التوجيه في عصرنا الحاضر. وله تأثير كبير على الناس من حيث يشعرون أو لايشعرون. يستطيع الإعلام، إذن، أن يخلق عند الناس الشعور بالجهل، وبالتالي الحاجة إلى المعرفة، وبالتالي الحاجة إلى القراءة.

* إعلامية في تلفزيون المستقبل

إن كثيراً من المواقف التي نتخذها والاهتمامات التي تطغى على تفكيرنا هي مواقف واهتمامات وسائل الإعلام، وإذا نظرنا إلى الفضائيات بشكل خاص لرأينا أن هذه المحطات لا تهتم بالثقافة الجادّة الأصيلة بل تبث كل ما يمكن أن يحطّ من شأن العقل ويعمّق تشرذمنا الثقافي. وهكذا يتلقى الناس ثقافة ساذجة، فكيف يشعرون بالحاجة للكتاب؟

أهم مثال على قدرة وسائل الاعلام في التأثير على سلوكيات المشاهد هو البرنامج التلفزيوني « نادي أوبرا للكتاب» الذي تقدمه الإعلامية الأميركية أوبرا وينفري على شاشة التلفاز. فقد ظل الكثير يعتقد أن الجمع بين التلفاز والكتاب هو أمر بغاية الصعوبة حتى جاءت فكرة البرنامج، فأصبح التلفاز نافذة لمكتبة تبيع الكتب.

هذا البرنامج أدهش دور النشر ومطابع الكتب، فبمجرد عرضه تتطاير من رفوف المكتبات مئات الألوف من نسخ الكتب، يشتريها أشخاص لم يعتادوا القراءة من قبل. نعم، نحن في عالمنا العربي بحاجة لبرامج كهذه يعرضها التلفاز للتشجيع على عادة القراءة ولبيان ما للمكتبة والكتاب من أثر على حياة الأفراد والشعوب .

وهنا يفتح النقاش حول البرامج الثقافية في التلفزيون التي لم تعد موجودة تقريبا، وإن كان هناك برامج ثقافية فهي تغرّد خارج سرب الثقافة والمثقفين عندنا، وغالباً ما تبدأ كبرامج ثقافية ثم لا تلبث أن تتحول فيما بعد الى برامج ترفيهية.

بالتالي ما هي المعوقات التي تقف في وجه نجاحها وتطورها؟

- **أولاً** هذه البرامج يقوم عليها أناس فاقدون لكل المواهب والخبرات المطلوبة في هذه المواقع. إن أغلب مقدمي البرامج الثقافية من إعلاميين غير ملمين بالمشهد الثقافي، وهم لا يملكون الخبرات المطلوبة. لذلك أصبحت هذه البرامج تكتفي بالجوانب الشكلية، وأصبحت تركز على عامل الإبهار لا المضمون. الخلل هنا مردّه إلى الذين جاءوا إلى الوسيلة الإعلامية ليعملوا في المجال الثقافي الإعلامي لكونهم إعلاميين لا مثقفين، مما جعلهم يقعون في إشكالية المحتوى الثقافي، وبالتالي، غير قادرين على تقديم محتوى إعلامي ثقافي مقنع. وهنا يُطرح السؤال لماذا لا يتم الاستثمار في الأسماء الثقافية الكبيرة من الأدباء والفنانين في عملية الإشراف على هذه البرامج وفي الإنتاج التلفزيوني.

- **ثانياً:** إن المضامين الإعلامية في القنوات الثقافية التلفزيونية العربية بعيدة عن

التعرّف على حاجات جماهيرها. معروف أن الوسيلة الإعلامية جماهرية، هذا يعني أن الجمهور المستهدف هو عامة الناس ومن هنا نجد أن المحتوى الإعلامي الثقافي بوجه عام يغلب عليه عدم التعامل مع عامة المتلقين بمهنية إعلامية تقدّم ثقافة مصنوعة بعناية دقيقة وغالباً ما تكون المادة الثقافية الإعلامية تقليدية لا تستجيب لاهتمامات الجمهور ولا تواكب تطور الواقع الثقافي.

- **ثالثاً:** الاستثمار في البرامج الثقافية غائب ومغيّب، الإمكانيات التي تقدم للبرامج الثقافية قليلة. الحصّة الثقافية يتم التعامل معها باستخفاف. إن هناك واقعا يطبعه التهميش لما هو ثقافي في المنابر الإعلامية في التلفزيون تُبرمج الحصص الثقافية إما في ساعات الصباح الأولى أو في ساعات متأخرة، وكذا الأخبار الثقافية ترد في ذيل النشرة، بينما نجد في القنوات الأوروبية أول خبر هو الحدث الثقافي، وفي نشراتهم الإخبارية تُخصّص ربع ساعة كاملة في نهاية كل بث إخباري للحديث عن كتاب صدر.

- **رابعاً:** هيمنة بعض الأسماء على الساحة الثقافية. وسائل الإعلام اللبنانية تعاني من "الاحتكار" وسيطرة بعض الأسماء عليها. إذن، على الإعلام أن يُحرر الساحة من الهيمنة الثقافية لسيطرة بعض الأسماء .

- **خامساً:** برامجنا تفتقر للجاذبية، ثمة حاجة لإنتاج برامج خلاقة وجذّابة تتمتع بمادة إعلامية وصورة ممتعة تستقطب المشاهد وتستحثّه على القراءة. يجب اعتماد مؤثرات جاذبة وممتعة للمشاهد. مازلنا نتحدث عن التغطية الإعلامية ونقع في فخ (انطلق، وقع، افتتح)، وغيرها من العبارات التي تجعلنا مجرد عابثين في الساحة، كما أننا لا نعرف شيئا من مفاهيم الاستراتيجيات الإعلامية الخطيرة والمعقدة، والتي تكون في المجالات الثقافية، إلى درجة أننا لا نملك مؤسسات حقيقية، بل هياكل شكلية في الثقافة والإعلام، تخضع للمزاجية والعفوية والارتجالية، لهذا تفقد برامجنا قيمتها الحقيقية، ولا تؤدي دورها وتخلف النفور.

تلك هي أبرز المشاكل التي تحدّ من تطور برامجنا الثقافية وبالتالي من قدرتها على التأثير في المشاهد. برأيي إن استطعنا تخطي تلك العقبات يمكن أن نصنع فرق على المستوى الثقافي وعلى مستوى الكتاب والمطالعة.

عماد خليل *

الإعلام المسموع كعنصر أساسي في الإعلام الثقافي

أن تطرح سؤال الأزمة في مطلق عنوان بحثي، يعني أنّك تريد أن تذهب إلى تفكيك عملي يتناول الموضوع المحدّد، ومن ثمّ تعمد إلى بناء مدماك يعيد الشّكل كما المضمون إلى حيثيّة بنّاءة، حيثيّة تفيد، وتضيف، لتكون المعالجة نقديّة، ومؤسّسة لمشروع جديد.

كيف، حين نحصر الأزمة في واقع جغرافي معيّن، من باب العنوان الذي نطلّ عليه في هذه النّدوة، والّتي تحمل عنوان:«أزمة المطالعة في لبنان»، بالتّأكيد سنجده عنوانًا مفتوحًا على كلّ الإشكاليات ، في سلّة مترامية الأطراف، والأبعاد، هذا إن لم نقل:إنّها أزمة حضارة، ووعي معرفي.

ولنتّفق أوّلًا، تكاد تكون المطالعة في أزمة عالميّة، وإن بنسب تتفاوت، هذا للموضوعيّة، ولنعترف أنّ الأمر يزداد تعقيدًا حين نطرح سؤال المطالعة في منطقة جغرافيّة تتغنّى على مدى الأزمنة، أنّها المصدّرة للحرف، وأنّها شكّلت مطبعةً للشّرق، جغرافية كانت ولمّا تزل في وقع الإشتباك المستمر مع الدّور والتّاريخ، نعم، نعترف مكرهين بحقيقة مؤلمة تكمن في ندرة التّنزّه في عقول النّاس، كما جاء على لسان المأمون حين سئل:«ما ألذّ الأشياء؟قال:التّنزّه في عقول النّاس» قاصدًا في قراءة الكتب، نعم، نحن في أزمة تضعنا أمام نتائج سلبيّة، نعيشها، إذ ، نحن في قلب الفوضى، ذلك، لأنّ الأسباب المؤدّية إلى مغادرة الكتاب، ليست فقط لأسباب

* إعلامي في إذاعة صوت الشعب

التّقنيّات العلميّة الحديثة في مجال التّواصل، والكتاب الإلكتروني، لأنّ المطالعة الجديّة حتى في هذه الوسائل، تقتصر على قراءات سطحيّة، غير معمّقة، لا تنتج وعيًا معرفيًّا، بقدر ما تشكّل تسطيحًا للمعرفة، ومن باب التّأثير الإعلامي، حصرًا في الإعلام المسموع، أذهب لأقول:

الإعلام هو سلطة المعرفة، أداة تغييريّة ونقديّة، بقي ولحينه، يشكّل تأثيرًا هامًّا في تشكّل مفهوم الرّأي العام، وفي الوقت نفسه، يستطيع الإعلام أن يتحوّل إلى أداة هدم منظّم،حين يرضخ لإشكاليّة السّلطة السّياسيّة في لعبة المصالح، وفي تمويه الحقائق، ضمن أجندة تكرّس الخطأ صوابًا، والعكس في المقلب الثّاني.

في الإطار العام للإعلام، يعتبر الإعلام المسموع من الوسائل الهامّة في تقديم المعرفة، لانتشاره، وبساطة التعامل معه من حيث التّقنيّة، ووصوله إلى كلّ شرائح النّاس، فالإعلام المسموع يخلق مذاقات متنوّعة، وهويّات متعدّدة، تنسجم مع تنوّع وتطلّعات البشر في الآراء والأذواق، لذا، بإمكان الإعلام المسموع أن يشكّل حيثيّة في تفعيل الكتاب، والمطالعة، ويجب أن يكون شريكًا مع الوسائل الإعلامية الأخرى في وضع القيم الإنسانية في سلّم أولويات العمل الإعلامي.

منذ العام 1906، وماقبل، وحين استمع النّاس لأول بثّ لصوت إنسان عبر المذياع، اعتبر في حينه مايبعث على القفزة النّوعيّة في التّطوّر العلمي، وهانحن اليوم في العام 2015، ولمّا يزل المذياع يقدّم الأصوات. رغم ما تلاه من تطور في الصّورة، يبقى المذياع خاطفًا للمشهد، وباعثًا لمشهديّة الرؤية في الخيال والتّفكر.

يعني ذلك أن للإعلام المسموع مايجب أن يلعبه في مسألة المطالعة في لبنان، وفي كل العالم طبعًا، طالما أنّه وسيلة تؤدّي وظيفة، لكن، أين الإعلام المسموع من واقع المطالعة؟

كل الإحصاءات تشير إلى تدنّي مستوى المطالعة في لبنان، وفي العالم العربي، مايقرأه الفرد في العالم العربي سنويًّا هو ربع صفحة سنويًّا، بينما ما يقرأه المواطن الأوروبي سنويًّا هو 35 كتابًا، وفي هذا دلالة واضحة على الأزمة.

أمّا الأسباب الّتي تجعل الإعلام المسموع في غياب عن الحث على فعل المطالعة، أحصرها على كثرتها في نقاط أهمّها:

دور الدّولة ووزارة الإعلام ضمن قنواتها المسؤولة عن مراقبة برامج المحطّات الإذاعيّة والّتي على ضوئها تعطى التّراخيص، حيث لابدّ من ضرورة وجود برامج ثقافيّة وإجتماعيّة هادفة.

مسؤوليّة التّعليم التّربوي في اللّغات، استنادًا إلى غياب مهارات التّواصل كما يشير د. سلطان ناصر الدّين، الإستماع- التّكلّم- القراءة- الكتابة، وهنا ،أشدّد على تواصل الإستماع كبداية أولى في عمليّة التّعلّم.

غياب البرامج الإذاعيّة، أو ندرتها، الّتي تخاطب الطّالب المدرسي، والفلاح العامل، أو المهن الحرّة، كأن تتناول بعض البرامج موضوعات تحث أصحاب المهن على مطالعة كتب تفيدهم، أو تقدّم برامج من شأنها أن تحوّل فعل المطالعة إلى حب ورغبة.

عدم تخصيص برامج لقراءة قصص الأطفال وتقديمها بشكل تمثيلي، أو للقاءات إذاعية يشاركون بها مما يحثهم على المطالعة والإستمتاع بها.

عدم مبادرة القيّمين على الإذاعات بزيارة المدارس، والجامعات، والبلديات، والمكتبات العامة، لتنظيم أنشطة على تماس مع الكتاب، كأن نسأل عن الكتاب الّذي قرأت؟ عن أهمّيّة المطالعة، وغير ذلك.

عدم تقديم برامج تكون المطالعة جزءًا من طبيعتها، مسابقات، حوارات مباشرة على غرار الحلقات الّتي تتناول مقابلات شخصيّة، أو طرح مواضيع معيّنة.

عدم التّنسيق بين وسائل الإعلام، وعدم وجود خطّة ممنهجة تساعد في رفد الكتاب، وتشجّع المطالعة.

عزوف الأساتذة عن قراءة الكتب، فكيف نطلب من طلابهم القراءة؟، وعدم مبادرتهم إلى توجيه طلابهم إلى البرامج المفيدة في وسائل الإعلام، أو إلى المواقع الإلكترونيّة المفيدة.

لجوء الإعلام في لبنان إلى الإنسجام مع الواقع السّياسي الطّائفي، وللأسف، والّذي على ضوئه يمنح التّرخيص، ممّا يحوّل مجمل البث الإذاعي إلى أداة لتلميع صورة الزّعيم الطّائفي، ولترويج الخطاب الطّائفي وتكريس المذهبة عبر برامج ضيّقة الأفق.

أمام ماجاء، أنكتفي بعرض الأسباب المؤلمة، أم نبادر مع كلّ سؤال حول أزمة، إلى سؤال يعيد البناء بعد التّفكيك، وهنا، أقترح بعض الحلول التي من المفترض أن تساعد في تعزيز المطالعة:

أن يؤمن الإعلام بمقولة «إنّ القراءة مفتاح العالم»، و أن القراءة هي فعل حبّ وإيمان، وطريق لاكتشاف الحقيقة من خلال العقل والتّفكّر: «إقرأ» و«في البدء كانت الكلمة».

تطبيق القوانين المرعيّة الإجراء في شروط العمل الإعلامي.

ضرورة لحظ أهميّة العلاقة بين الواقع التّربوي منذ مرحلة الرّوضات والإعلام في تفعيل حركة المطالعة كفعل ينمّ عن رغبة ، وليس فعلًا استعراضيًا،انسجامًا مع ماقاله مونتسكيو «حبّ المطالعة هو استبدال ساعات السّأم بساعات من المتعة».

أن تلحظ الإذاعات ضمن برامجها، موضوعات على علاقة بالكتاب، وتحديدًا، موضوعات لعالم الصّغار، لأهمّية التّنشئة في الحياة الفكريّة.

التّنسيق بين وسائل الإعلام مجتمعة، وحتى الإلكترونيّة في وضع خطّة منسّقة، تجد في تنظيم خطواتها إفادة للقراءة، وهذا يرتب جملة أمور.

أن تمنح إدارات المحطّات الإذاعيّة الحريّة التّامة في النّقد، وفي معالجة الكتب الرّصينة عبر أثيرها.

دور دور النّشر في دعم البرامج الثقافية، وتحديدا فيما له علاقة بالكتاب، وفي هذا المجال لي تجربة أقدّرها، وأثمّنها، حيث منحني دار الفارابي الحريّة المطلقة في اختيار ما أحتاجه لبرنامج إشكاليات عبر أثير صوت الشعب، وكذلك، دار شركة المطبوعات للتوزيع والنّشر.

المذياع المتنقّل، بين النّاس،في إطار موضوعات لها علاقة، بمسابقات ، وغير ذلك، انطلاقًا من الكتاب.

التّجربة الشّخصيّة:

لإدارة المحطّة الإذاعيّة أهميّة في تحديد مسار العمل، ومن حسن الحظ ، أنّني في

إذاعة صوت الشّعب وجدت الحريّة في العمل الإعلامي، حيث كانت الإذاعة ومن خلال كلّ من تعاقب على تحمّل مسؤوليّة العمل الإداري، ترى في العمل الثّقافي أولويّة، وفي الكتاب مصدر غنى. للسّنة العاشرة والإدارة تمنحني هذا الشّرف عبر مذياعها أن أحمل أمانة الكلمة، وفعلًا ، هذا البرنامج أريد له أن يقوم بدور تحفيزي للقراءة، وقد نجح فعلاً في تحقيق هذا الهدف. فعند كل مناقشة لكتاب جدّي في موضوعاته، كان يلقى تجاوبًا وإقبالاً على شرائه، وأنا أعمل في هذا المضمار انطلاقا ممّا قاله فولتير:«إنّ أنفع الكتب هي تلك الكتب الّتي تستحثّ القارىء على إتمامها"، وممّا قاله الرّوائي العربي نجيب محفوظ:» قارىء الحرف هو المتعلّم، وقارىء الكتب هو المثقّف"، آمل أن يكون برنامج إشكاليات من البرامج الّتي تفيد وتساهم في تحقيق غاية المفكر جان بول سارتر حين قال:«إنّ الكتاب وهو ملقى على الرّف أشبه بالجسم الميت، تدبّ فيه الحياة إذا ما امتدّت إليه يد القارىء».

أخيرًا، الشّكر للنّادي الثّقافي العربي على إحياء عرس الثّقافة في كلّ عام، ولرئيسة اللّجنة الثّقافيّة المتابعة الكاتبة نرمين الخنسا، وللّجنة الوطنيّة لليونسكو لاهتمامها برعاية هذه النّدوة مع النادي، وللزّملاء المنتدين وللحضور الّذي يغني دائمًا مطلق ندوة ولقاء.

د. ناتالي الخوري *

أزمة المطالعة في المرحلة الجامعيّة، أسباب ومحاولات إيجاد حلول

أزمة المطالعة، عنوان لقائنا، اعتراف واضح وصريح أنّ ثمّة أزمة تستوجب حلّا، أزمة لا يمكن أن تُقرأ بمَعزل عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني والنفسي، حيث لا يمكن أن نفصِل بين طبيعة الانتاج المعرفي وكيفيّة تلقّيه.

وغائيّةُ حديثنا اليوم عن أزمة المطالعة، هي تأسيس أو تأصيل الانفتاح على الآخرين والاستنارة بمختلف أفكارهم ورؤياهم لخلق وعي جمعي، من أجل احتراف العيش في ظلّ التحديّات والإرباكات التي تطال مجتمعَنا.

ولكن، على أيّ نوع من الكتب نتكلّم؟ (وهنا أحب ان ألفت إلى أنّ الكتاب الالكتروني ليس سبباً في الأزمة بل على العكس) . هل أزمة القراءة ناتجة عن طبيعة القارئ وتبدّل اهتماماته بتبدّل العصر والأولويّات؟ أم عن ضغوطات الحياة الاجتماعيّة وإيقاعها السريع؟ أم عن نوعيّة الكتاب بحسب الموضوع الذي يناقشه وكيفيّته، والنوع الأدبي الذي ينتمي إليه وأسلوب كتابته؟ أم هي أزمة يسبّبها الكاتب بالطريقة التي يقارب فيها موضوعاته؟ أم الإعلام الذي يهمّش الكاتب والكتاب فيؤسس بذلك لأحكام مسبقة عند الطلاب أو الناس بعدم فاعليته وتاليًا تهميش دوره.

بناء عليه، لن أتكلّم على ضرورة القراءة ومنافعها وقد قيل فيها الكثير، سأكون في

* أستاذة جامعية

كلمتي أقرب إلى الإضاءة على الأسباب وإمكانيّة إيجاد آليات تكون حلولا عملانيّة، وتحديدًا، عند الطلاب الجامعيين.

وفي تفكيك سريع للمسألة، نتناول من المطالعة ثلاثة أركان أساسيّة في ثلاثيات: عند الطالب الجامعي تحديدًا: الطالب-القارئ، النصّ أو المادة المقروء، والكاتب أو المؤلف.

أولاً: الطالب - قارئ

أ- وقت الطالب - القارىء: نظرًا للحالة الاقتصادية، وإلى حاجة الطالب أن يعمل وفي الوقت عينه يدرس، نحن أمام حجج جاهزة تتذرّع بضيق الوقت لتقسيمه بين العمل والحضور الصفي، والعمل البحثي المطلوب للمقرّر... أين يكمن الحلّ؟

في إلغاء الأبحاث، تساهلا وتعاطفًا مع وضع الطالب، وفي ذلك دفعٌ مباشر نحو استفحال الأزمة، على صعيد المستوى والقراءة والشهادة؟ في الإصرار عليها وفي ذلك دفع نحو قيام الطلاب بها على طريقة الـ copy –paste أو «النسخ واللصق»

الحلّ هو أن علينا كأساتذة أن نقنع الطالب أنّ القراءةَ في مرحلة الدراسة الجامعيّة ليست ترفًا، بل هي حاجةٌ وضرورة، حيث التأسيسُ والبناء، وهي حاجةٌ تنمويّة فكريّة لبناء ذهنيّة قادرة على الانتقاء بعد استعراض ما تكون اكتسبته، وزوّادةُ توعية تقيه السقوطَ في فخّ النقد غير المبني على أصالة الحسِّ العلمي، كي لا نصل إلى ذهنيّة إلغائيّة تهدم المجتمع.

ب- ذوق الطالب: كيف يتشكّل ذوق الطالب هل ينمو منذ الصغر مع الأهل وتوجيههم، أم مع المدرسة في مراحلها المتوسطة والثانوية حين يبدأ الجدل والنقاش في الموضوعات الفكرية والايمانية والعلميّة وسواها؟

أعتقد أن الأزمةَ هنا تبدأ مع طلّابنا في مرحلة ما قبل الجامعة .لذلك علينا أن نوجّه طلابَنا في المرحلة الثانوية تحديدا إلى قراءة النصوص الفكرية-الاجتماعيّة المغلّفة بقالب سردي، والتي تناقش إشكالياتٍ وجدلياتٍ وتحمل همًّا وجوديًا وقلقًا معرفيًا، أي تنمّيّ لديهم حسّ السؤال وتاليًا فضول المعرفة.

أين تتجه أذواق طلابنا في القراءة؟ تتجّه إلى حيث يريد الإعلام والإعلان بما يتمتعان به من قدرة على التسويق والترويج تصعب مقاومتها.

ج- ما يُجبر به الطالب: ثمّة مراجع ومصادر على الطالب الجامعي أن يكون مطّلعا عليها من أجل كتابة أبحاثه في إطار المقررات، وبات معلوما أن المقررات في المناهج الحديثة ونظام الـ LMD أو (إجازة، ماجستير، دكتوراه،) ما عادت تعتمد على كتاب واحد للمقرّر، وعلى الطالب أن يقوم ببحثه بعد الاطلاع على عدد معيّن من المراجع.

دورنا كأساتذة يفرض علينا عدم التساهل مطلقًا، لكن إذا أعطينا الأفضلية للأبحاث في عملية التقييم نكون قد فتحنا باب الالتفاف على مصراعيه بحيث يوصي الطالب زميلا له أو متخصّصًا في مجال بحثه بكتابة هذا البحث، وإذا أعطينا الأفضلية في التقييم للامتحان الصفي، نكون قد سقطنا في فخ الحفظ والتلقين.

أين يكمن الحل؟ العمل على تعزيز فضول المعرفة لدى الطالب طموح الطالب من جهة، وفيما يتعلق بالامتحان الصفي اعتماد أسئلة تختبر الحسّ النقدي. مثلا، مادة الحضارات القديمة، يمكن أن تدرّس كسرد للمعلومات التاريخيّة، ويمكن أن تدرّس كحوار جدلي ضمن إطار المقارنات وتداخلها مع الفلسفات قديما وحديثًا...

يجب أن نعي، نحن والطالبَ، أنّ ما يُبنى على رأي واحد، أو ما ينطلق من منظور واحد، يؤدي الى أُحادية ستصطدم حتمًا برأي آخر مناقض. المهمّة هنا تأسيس جيل يماك الحس النقدي والتربوي والقدرة على البحث، لقد أظهرت نتائج امتحانات مجلس الخدمة المدنية التي جرت مؤخراً مؤشرا خطيرا لتدني مستوى الثقافة العامة عند الأساتذة الثانويين الذين اشتركوا في مباراة وظيفة أستاذ ثانوي.

ثانياً: النصّ المقروء أو مادة المطالعة

أ-موضوعه: لم الكتب الأكثر قراءة بين طلاب الجامعه هي كتب الابراج؟ لمَ هذا الزحف الهائل إلى أقوال المنجّمين والعرّافين وتحليلاتهم السياسيّة والاجتماعيّة والفنيّة؟ وهنا تكمن المشكلة في مجتمعاتنا القائمة على التوقّع لانعدام الثبات فيها، وهذا مؤشّر خطير

في مجتمعاتنا عندما يصبح الثبات قائمًا على التوقّع. ليس مؤشرا خطيرا فحسب بل هو معيب، سرّا او علنا. وكأنّ القارئ-الطالب، ينتظر فعلًا أن يؤمّن مستقبله أو نجاحه ويعرف ما غُيّب عنه وكشف لغيره. وهذا بحدّ ذاته مؤشّر خطير للذهنية التي تتحكّم بعقول الطلاب الجامعيّة. ولم التوجه إلى الكتب الأكثر شهرة عالميا؟ وكي لا نقف هنا، في موقع الشاكي والباكي والمتفرّج، علينا مواجهة تحدّيات كبيرة كأساتذة بالتوجيه والتحفيز:

-التوجيه إلى الكتب غير المتخصّصة:

إذا أردنا توجيه الطلاب إلى كتب تنمّي ثقافتَهم وفكرَهم من خارج الاختصاص، فإنه يجب إرشادُهم إلى الكتب الفكريّة-الجدليّة الي تنمّي لديهم الانفتاح على الآخر، إلى الكتبِ التي تعلي من شأن التعدّدية الثقافية والفكرية والدينية، إلى الكتب التي تهتمّ باللغة وإشراقتها بعيدًا من الأخطاء الشائعة التي تؤسّس لمزيد من الأخطاء، وتكرسُّها.

- قد يكون القالبُ السردي أكثر تشويقا من كتب الفكر الخالص، وقد نكون الآن في زمن الرواية، لذلك يجب توجيه الطلاب إلى اختيار ما يحمل مخزونًا معرفيًّا، يمكن أن يزيد من ثقافتهم، وإلى اختيار ما يحمل نقاشًا فكريًا يعوّدهم على أن ثمّة رأيًا ورأيًا آخر، ويبين لهم كيف تُبنى الجدليات وتسهم في بناء توليفة فكر جديد.

ب-التحفيز

1 - التحفيز الداخلي

يكون التحفيز الداخلي بخلق الشغف عند الطلاب، وأقصد بالشغف خلق حالة هوس معرفي ضمن موضوعات قابلة للقراءات المتنوّعة وهذا يخلق أمرين:

- أ- تنمية حسّ المقارنات بين الحضارات أو الأديان والمجتمعات في عيشها وتطورها ونموّها.
- ب- تنمية الشغف المعرفي الذي يدرك أنّ ثمّة أمورًا أكثر لم تُعرف بعد، غوصًا على مجهول قد يفتح آفاقا غيرَ متوقّعة.
- ج - خلق حالة إدمان على الكتاب. وإذا كان الأستاذ شغوفا بالمعرفة، ولّد هذا الشغف عند الطلاب .

2 - التحفيز المادي:

غالبًا ما يتطلّب التحفيز المادي رصد ميزانيات غير متوفّرة في الجامعات الحكوميّة، ليكون الكلام على التحفيز المادي، كجوائز، ضربًا من الكلام الذي لا يمكن أن يترجم على أرض الواقع، إلا فيما ندر. :يبقى النوع الثاني من التحفيز المادي، وهو استخدام التقييم، أي العلامات بإضافتها على نتيجة المادة. يمكن كذلك تحفيز الطلاب بنشر ملخّصاتهم أو أبحاثهم أو مقالاتهم الأدبية او قصصهم، في مواقع الكترونية أو جرائد أو التعليق عليها وجعل أكبر عدد من الاصدقاء يطّلعون عليها، وهنا ضرورة استثمار المواقع الالكترونية، ليشعروا بأهميّة ما يكتبون وما يقرأون، بالإضافة إلى المشاركة في المسابقات والجوائز وقد صار الاشتراك بها سهلا بفضل مواقع التواصل الاجتماعي. (وهنا أودّ الإشارة إلى المرحلة الانتقالية التي تعيشها شرعيّة النشر الالكتروني، التي لم تتحقّق بعد كليًّا، لكن الوقت كفيل بذلك، وقريبًا).

ج - الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب

لنتّفق أوّلًا على أن مصادرَ معرفتنا بالإصدارات الجديدة نأخذها من منبعين: الإعلام،(مرئي ومسموع ومكتوب، ومواقعَ تواصل اجتماعي) ومعرض الكتاب، (نشاطات ثقافية وتوقيع كتب وعرضها وندوات عنها) وهذا المعرض صار مكونا أساسيًا في الثقافة والمشهد الثقافي في لبنان.

بما أنّ الاعلام المرئي لا يخصّص حيّزا للثقافة والكتب إلّا فيما ندر، سأتكلّم على الإعلام المكتوب، كأستاذ هو صلة وصل بين الإعلان عن المنتَج الثقافي والمتلقي، وأتساءل ما هو المطلوب من الصفحة الثقافيّة في أيّ جريدة، وهل فعلًا تسهم الصفحة الثقافيّة في بناء الرأي العام ثقافيًا؟

الصفحة الثقافية لا تسهم في خلق منظومات فكريّة لكنّها تضيء عليها وتساعد على التعرّف على تجارب وخبرات تَنقلها إلى القارئ عبر مقالات أدبيّة وفكرية. إنها تشكّل إضافة تخرج منافعُها من حيّزِ المتعةِ والتراكم المعرفي إلى فضاء الاعتبار والاحتكام إلى حتميّة المتغيّرات، مع الإبقاء على ثوابت القيم.والأهم أنها تضيء على الاصدارات الجديدة

باتجاهاتها كافة، أدباً وشعرًا ورواية وفكرًا سياسيًا واجتماعيًّا.

والأمر عينُه ينطبق على تخصيص بعض الإذاعات برامجَ حوارية حول كتب واصدارات وغيرها... وهنا أحبّ أن أوّجه تحيّة خاصّة لمجهود جديد من نوعه يعزز من قيمة الكاتب والكتاب عند الناس، فقرة كتاب من برنامج يوم جديد لمعدّه أستاذ ميشال أبي راشد، على قناة الغد العربي، حيث يأتي فريق التصوير إلى المنزل وليس العكس ايمانا بمكانة الكاتب وقيمة ما يكتب.

ثالثاً: الكاتب، هواجسه، علاقته بالقارئ، عدّة الكتابة.

أ-هواجسه: علينا أن نستوعب أوّلا، كأساتذة، نفورَ الطلاب من كتب التراث، وهذا لا يعني الغاءها،(وبخاصة بدءا من المرحلة الثانوية) ولكن يجب التنبّه إلى أن هذا النفور يصبح عامًا يشمل كلَّ الكتب إذا بقي الاصرار على إعطاء التراث كلَّ هذا الحيّز،(من دون الوقوع في تجديد إشكالية القدماء والمحدثين). وعلينا الاعتراف أيضًا أننا نعيش في عالم متغيّر يتطلب متغيرات أدبيةً تشدّه، يريد الطالب أن يقرأ كتابًا لانسان يعيش معه الواقعَ المتغيّرَ المتخبطَ الذي يعيشه هو، الذي يعيش همومَه ومآسيه، يريد أن يعرف أن الكاتب ليس صورة وهمية منسيّة في كتاب التاريخ، بل شخص يعانى ما يعانيه...وموضوعاتٌ تحاكي عصرَه ومتغيراتِه ومتطلّباته، في قوالب غير جامدة، بعيدا من جفاف الفكر والإطالات غير المبرّرة، وجمودِ اللغة، والاهتمام بموضوعات يتمّ تناولُها بلغة معاصرة تحافظ على أصالتها، تنمّي القيم الأخلاق من دونَ أن تكون وعظيةً مباشرة، تنتج علما ومعرفة من دون أن تكون جافّة، على قاعدة أن الطعام الصحي لا يكون لذيذًا.

ب-علاقته بالقارئ: تنبع ضرورةُ تأمينِ لقاء أو تعارف ولو من بعد، بين الطالب الجامعي والكاتب، تنبع من أهميّة هذا اللقاء في تمتين العلاقة مع الكتاب عبر كاتبه، أكان شاعراً أو روائياً أو مفكراً أو فيلسوفاً، والاحتكاك به ومناقشته. وهنا للجامعة أو للأستاذ الجامعي دورٌ في تأمين هذا التعارف. وتاليًا تمكّنُ من تصحيح صورة الكاتب النمطيّة الموجودة في ذهن الطلاب أنّ الكتّاب مزاجيون وعديمو الترتيب وبخاصة في الفضاء الأدبي، مع ضرورة الاعتراف لمواقع التواصل الاجتماعي في إفساح المجال للنشر والتفاعل والتعارف. وأعتقد أنّ

هذه المواقعَ كسرت حواجزَ المسافات والجغرافيا أولاً، إلا أنّها لم تكسر بعدُ حاجزَ الجُرأة في الاعتراف بالآراء علانية ضمن منتديات جديّة للقراءة، بعيدًا من تعليقات المجاملات والكلمات الأكثر ترداد:«رائع، مميز، جميل». مع آمالِنا دائما بألا يعتزل المؤلفُ ويبتعد إما عبثًا او تعاليًا.

ج- عدّة الكتابة : لن أفضّل هذا الامر، فالمتفق عليه أنّ اللغةَ المترفة الأنيقة والعمقَ الثقافي والمعرفي والبعدَ القيّمي الهادف للنص وسلاسة الأسلوب هي عدّةٌ حتميّة للكاتب في مختلف الميادين.

ختامًا، وعلى مستوى الإنتاج الأدبي والمعرفي، نستطيع القول إنّ الحالة الأدبيّة والفكريّة بخير، وأنّ ثمّة كتّابًا (شبّانًا وشابّات) يختزنون في أقلامهم إبداعات تستحقّ التوقّف عندها بما يشكّلونه من ظاهرة أدبيّة ونقدية سيكون لها شأن كبير. وإيمانا مّنا بهم، بادرنا إلى تأسيس منتدى قراءة تحت عنوان «حركة نقد» أو «إصدار ونقاش»، لمجموعة من الطلاب الجامعيين الشغوفين بالمعرفة. وسيكون هذا المنتدى مؤلفا من ثلاثة أجيال، من أجل إفساح المنابر للجيل الجديد وتدريبهم نقديا ومعرفيا لمناقشة الكتب والإصداراتِ الجديدة مع أصحابها.

باتريك رزق الله *

الإعلام الإلكتروني في خدمة المطالعة: موقع «تواصل» نموذجًا

لقد دُعِيْتُ إلى هذه النّدوةِ عبر مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيّ، ووجّهْتُها بدوري إلى آخرين عبر المواقعِ نفسِها، وأنا على تواصلٍ دائم مع الصّديقةِ نرمين الخنسا، صاحبةِ الدّعوة، عبرَ الفيس بوك. فهل يجوزُ أن يسألَ أحدٌ بعدُ عن فوائدِ مواقعِ التّواصلِ الاجتماعي؟

أيُّها الحضورُ الكريم،

أشكرُ للنّادي الثّقافيّ العربيّ واللجنةِ الوطنيّةِ اللبنانيّةِ لليونيسكو هذه الدّعوةَ الكريمةَ في معرضِ بيروت العربيّ والدّوليّ للكتاب بدورتِه التّاسعةِ والخمسين، للبحثِ في إحدى الإشكاليّاتِ الأدبيّةِ والثّقافيّةِ البارزةِ عن دورِ مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيّ وعلاقتِها بأزمةِ المطالعةِ في لبنان، مع العلم بأنّ هذه الأزمةَ، بأسبابِها ونتائجِها، تستوجبُ التّعميمَ لتشملَ العالمَ العربيَّ بأكملِه.

عندما سألْنا متعلّمين من مدارسَ مختلفةٍ في إحصاءٍ أجريْناه باسمِ موقع «تواصل أونلاين» لتعليم اللغةِ العربيّةِ على شبكةِ الانترنت عن الكتابِ الأخير الّذي قرأوه باللغةِ العربيّةِ من خارجِ المنهاج، كان جوابُ الأغلبيّةِ منهم الإنجيلَ أو القرآن. وعندما سألْناهم عن المرّةِ الأخيرةِ التي زاروا فيها المكتبةَ لشراءِ كتابٍ باللغةِ العربيّةِ، كان جوابُهم بنفي حصولِ الزّيارةِ

* أستاذفي التعليم الثانوي، مؤسس موقع "تواصل" لتعليم اللغة العربية

من الأساس. وهذا كافٍ برأينا لتكوين فكرةٍ عن واقعِ المطالعةِ عند الجيلِ الجديد، من دون الحاجةِ إلى البحثِ في الإحصاءاتِ التي أصبحَتْ معروفةً عن نسبةِ القراءةِ في العالمِ العربيّ. أما أسبابُ بلوغ هذا الواقع فعديدةٌ ومنها ما يعودُ برأي البعضِ إلى ظهورِ مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيّ وانصرافِ المتعلّمين إلى تصفّحِ مواقعِها وصفحاتِها المتنوّعة وإهمالِ الكتاب.

فما هذه المواقعُ الغريبةُ والعجيبةُ التي جذبَتْ إليها الكبارَ والصّغار؟ وما علاقتُها بأزمةِ المطالعة؟ ولماذا ينسُبُ إليها معظمُ المهتمّين بالنّواحي الثقافيّةِ مسؤوليّةَ التّراجعِ في الإقبالِ على القراءة؟ وما دورُ دورِ النّشرِ والكتّابِ في هذه الأزمة؟ وما علاقتُهم أصلاً بالمواقعِ الالكترونيّة؟ وهل يمكنُ تحويلُ هذه المواقعِ إلى وسيطٍ تفاعليّ إيجابيّ بين الكاتبِ والقارئ؟

إنّ مواقعَ التّواصلِ الاجتماعيّ ومنها غوغل ويوتيوب وفيس بوك وغيرُها هي صفحاتٌ رقميّةٌ منظّمةٌ على شبكةِ الانترنت، يُستفادُ منها في نشرِ المستنداتِ المكتوبةِ من عباراتٍ بسيطةٍ ومقالاتٍ وكتبٍ وغيرِها من أنواعِ الكتابة، بالإضافةِ إلى التّسجيلاتِ الصوتيّةِ والمشاهدِ المصوّرة، كما أنّها تشكّلُ مساحةً حرّةً للمستخدمين كي يعبّروا عن آرائهم المختلفةِ قولاً وكتابةً. فاسمحوا لي أن أسألَ أمامَكم وبصراحةٍ تامّة: هل في هذا ما يسيءُ إلى المطالعةِ بأطرافِها الثّلاثة، الكاتب ودار النّشر والقرّاء؟ أو على العكس؟

وفي السّياقِ نفسِهِ يعتبرُ بعضُ الباحثين بأنّ هذه المواقعَ هي السّببُ الأوّلُ اليومَ في تراجعِ الإقبالِ على الكتابِ الورقيّ وإهمالِهِ لمصلحةِ الكتابِ الرّقميّ الذي يزدادُ حضورُهُ تلقائيًّا يومًا بعد يومٍ على شبكةِ الانترنت، وبأنواعِهِ ومواضيعِهِ المختلفة، وهنا أسألُ أيضًا: أليسَتِ القراءةُ الملتزمَةُ أو المطالعةُ سواءٌ في الكتابِ الورقيّ أو الكتابِ الالكترونيّ واحدةً بنتائجِها المعرفيّة، بصَرْفِ النّظرِ عن الوسيلةِ أو الرّابطِ العاطفيّ الذي يجمعُ جيلاً بالكتابِ الورقيّ، وجيلاً آخرَ بالكتابِ الالكترونيّ؟

أيُّها الحضورُ الكريم،

إنّ مجتمعًا أدبيًّا رقميًّا جديدًا بدأ يتكوّنُ على مواقعِ التّواصلِ الاجتماعيّ في حركةٍ ثقافيّةٍ معاصرةٍ تبشّرُ بمستقبلٍ زاهرٍ للكلمةِ الأدبيّةِ في العالمِ الرقميّ، مع أدباءٍ وأديباتٍ وظّفوا صفحاتِهم الخاصّةَ للكتابةِ اليوميّةِ والتّفاعليّةِ مع القرّاء، وفي تواصلٍ دائمٍ معهم، ومنهم مَن تخطّى عددُ متابعيه الآلافَ كالرّوائيّةِ ماري القصّيفي أو الكاتبِ والإعلاميّ إيلي صليبي، أو الرّوائيّةِ نرمين الخنسا، أو الباحثة الدّكتورة نتالي خوري، أو الشاعر الدّكتور نزار دندش وغيرهم من المُبدعين والمُبدعات الذين لا مجالَ لذكرِهم جميعًا في هذه المُداخلة. أفليسَ في وجودِ هؤلاء الأشخاص على صفحاتِ الانترنت ونشاطِهم الأدبيّ ما يثيرُ الفضولَ لدى القرّاء لمتابعةِ إصداراتِهم الأدبيّةِ وقراءةِ ضمونِها ورقيًّا أو إلكترونيًّا؟

إنّ مواقعَ التّواصلِ الاجتماعيّ قد أمّنَتْ للكاتبِ فرصةَ التّواصلِ المباشرِ مع عددٍ كبيرٍ من القرّاء، والنّشرِ السّريعِ للمؤلّفات، كما أغنَتِ الواقعَ الأدبيّ بتجاربَ جديدةٍ تتماشى مع النّمطِ المعاصرِ والحديثِ على السّاحةِ العالميّةِ بفعلِ العولمةِ ونتائجِها، فإذا بالعباراتِ تبدو مختصرةً ومكثّفةً في الوقتِ نفسِه، وتتميَّزُ بعنصرَي الصّدمةِ والابتكار، بعيدًا من النّصوصِ الأدبيّةِ الطّويلةِ التي لا يستسيغُها القارئُ في العصرِ الحديث. فالقراءةُ هنا ليسَتْ تقليديّةً بل سهلةٌ، سريعةٌ، عميقةٌ، وغنيّةٌ بالصّورِ والمعاني. إنّها وبكلِّ صراحةٍ لغةُ العصر، لغةُ الانترنت، لغةُ جيلٍ جديدٍ من الكتابِ فرضَ نفسَهُ في عمليّةِ الإنتاج، فليُعْطَ الفرصةَ المناسبة! ومن جهةٍ أخرى فقد أتاحَتْ للقارئِ إمكانيّةَ الاطّلاعِ على عددٍ أكبرَ من الكتبِ والإصداراتِ عبر المكتباتِ الرّقميّةِ التي تقدِّمُ للمستخدمين ملايينَ المستنداتِ المكتوبةِ وبأنواعِ أدبيّةٍ مختلفةٍ وبسرعةٍ خياليّة. باختصار لقد وضعَتْ هذه المواقعُ المكتبةَ بين يدَي المستخدِمِ بما يسهِّلُ عليه عمليّةَ البحثِ والاختيار.

ومن فوائد مواقع التواصل الاجتماعي أيضًا ما يُعنى بالصّفحاتِ الحيّةِ لدورِ النّشر، والتي يتولّى مديروها نشرَ إعلاناتٍ عن جديدِ المؤلّفاتِ لديهم، مرفقةٍ بمقتطفاتٍ تعرِّفُ بضمونِ الكتابِ أو الرّواية، الأمر الّذي يوفّرُ للقارئِ منصّةً غنيّةً بالبياناتِ الرّقميّة، يمكنُ اللجوءُ إليها للاطّلاع على ما هو جديدٌ في عالمِ الأدبِ والإبداع، مع العلم أنّ هذه الصّفحاتِ لا تزالُ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من التّفعيلِ للتّحفيزِ على المُطالعة. وفي مثلٍ حيٍّ على ذلك، فإنّ مواقعَ التّواصلِ الاجتماعيّ كانت تضجُّ في الأيّامِ الماضيةِ ولا تزالُ بمئاتِ الدّعواتِ عن ندواتٍ ولقاءاتٍ واحتفالاتٍ تُعقَدُ للتّعريفِ بالكتبِ الجديدةِ التي تصدرُ عن دورِ النّشرِ في هذا المعرِض، ومنها الإعلانُ عن ندوتِنا هذه كما ذكرْتُ في البداية.

أخيرًا، وبخلافِ الرّأيِ السّائد، أظنُّ أنّنا نحتاجُ إلى مزيدٍ من المواقعِ الأدبيّةِ واللغويّةِ

التي تتولّى تسويقَ الإصداراتِ الأدبيّةِ وتحفيزَ المتعلّمين على المطالعةِ، وإلى تشجيعِ الكتّابِ والأدباءِ على مواكبةِ هذه المواقعِ بإيجابيّةٍ بنّاءةٍ تتماهى مع التحوّلاتِ الحديثةِ في مجالِ المعلوماتيّةِ.

أشكرُ إصغاءَكم جميعًا، وأتمنّى أن تخرجَ سلسلةُ هذه النّداوتِ بنتائجَ عمليّةٍ مثمرةٍ وألا يصيبُها ما أصابَ سلسلةَ الرّتبِ والرّواتب. وشكرًا..

سلمان زين الدين *

المطالعة المدرسية بين النص والواقع

مدخل

في العام 1921، نشرت صحيفة مصرية إعلانًا عن مسابقة كبرى تمنح بموجبها عشرين جنيهًا مصريًّا موزّعة على ست جوائز لمن يقرأ كتابًا قدّمته مجّانًا للراغبين في المشاركة.[1] وفي العام 2015، بعد قرابة قرن من الزمان، يُعرِض الناس عن قراءة الصحف ما يضع بعضها على حافّة الاحتجاب.

في العام 1967، يقول الأديب الكبير ميخائيل نعيمة لاسكندر داغر: «إنه لمن المؤسف أن العرب حتى بعد أن أخذت الأمية تتقهقر في ديارهم لم يُقبلوا على القراءة إقبال الناس في الغرب، فلا مدارسنا تشجّع قرّاءها على القراءة، ولا مدننا وقرانا تتسابق إلى فتح المكتبات فيها، ولا أرباب البيوت عندنا يتنافسون بما في بيوتهم من كتب وتحف فنية بقدر ما يتنافسون بما فيها من رياش ثمين وأدوات حديثة في المطابخ والحمّامات».[2] وما أشبه اليوم بالأمس!

من هذه الوقائع، ندخل إلى الكلام عن تراجع القراءة في لبنان والعالم العربي وبلوغها أدنى المستويات قياسًا بما يحدث في مناطق أخرى من القرية العالمية؛ فقد بيّنت الإحصاءات المنشورة في بعض المواقع الالكترونية أن ثمانين عربيًّا يقرأون كتابًا واحدًا في السنة بينما يقرأ الأوروبي الواحد 35 كتابًا، مع العلم أنّ أكثر الكتب مبيعًا في هذه المنطقة من العالم، كما

* مفتش تربوي وشاعر

تشير إحصائيّات معارض الكتب هي: الكتب الدينية وكتب الطبخ وكتب الأبراج.[3] والمفارقة أن هذا كلّه يحصل في أمة تحضّ السورة الأولى من قرآنها الكريم، في أربعٍ من آياتها، على القراءة، وما يحدث على المستوى العام ينسحب على المستوى المدرسي.

المطالعة في النص

ترد الإشارة إلى المطالعة المدرسية في نصّين اثنين؛ أحدهما تأسيسي هو «مناهج التعليم العام وأهدافها»[4]، والآخر تفصيلي هو التعميم الذي يحدّد تفاصيل محتوى مادة اللغة العربية وآدابها.[5]

في النصّ الأول التأسيسي، وردت إشارات عدّة إلى المطالعة، توزّعت على مقدّمة منهج اللغة العربية، وأهدافه العامّة، والأهداف الخاصّة لمراحل التعليم، ومحتوى المادّة، والتوجيهات العامّة في طرائق التدريس. وهي إشارات تتراوح بين تحديد مضمون المطالعة ووظيفتها وأهميتها ودورها...؛ ففي مقدّمة المنهج ثمّة إشارة إلى أنّ منهج القراءة في مرحلة التعليم الأساسي يعتمد «مطالعة الآثار الأدبية الكاملة واعتبارها مادّة تعلّم» (ص40). وفي الأهداف العامّة، وفي إطار «بناء شخصية المتعلّم الفرد والمواطن»، تتمّ الإشارة، في أحد الأهداف العامّة، إلى أهمّية المطالعة وآليّة ممارستها ووظيفتها بالقول: «إدراك أهمّية المطالعة الحرّة وممارستها بوصفها متعة وفائدة واعتمادها وسيلة فعّالة من وسائل التثقيف الذاتي وإتقان التعبير» (ص41). وهذا الهدف العامّ يرد حرفيًّا بشكل مجتزأ ضمن الأهداف الخاصّة للمرحلة المتوسّطة بحيث يُحذف الجزء المتعلّق بالمطالعة كوسيلة تثقيف (ص59). وتتمّ الإشارة إلى المطالعة، في الأهداف الخاصّة للحلقة الثانية من التعليم الأساسي، بتبيان مادّتها ونوعها بالقول: «مطالعة كتب مزيّنة بصُوَرٍ مطالعةً حرّة، أو موجّهة في إطار التآلف مع الكتاب» (ص54). بينما تخلو الأهداف الخاصّة للمرحلة الثانوية من أيّة إشارة صريحة ومباشرة إلى المطالعة، ويجري التعبير عنها مداورةً بالقول: «مواصلة التعرّف إلى نماذج من روائع الأدب العالمي». (ص65، 66، 67).

في محتوى المادّة، ثمّة إشارة خجولة إلى المطالعة، في فرع «التعبير» من مادّة اللغة العربية في الحلقة الثالثة، تقتصر على تنظيم بيان مطالعة بنتيجة قراءة كتابين اثنين في

كل صف من صفوف الحلقة الثالثة (ص62، 63، 65). أمّا في المرحلة الثانوية، وفي إطار فرع "الثقافة الأدبية العالمية"، فيشير محتوى المادّة إلى عدد الآثار المطلوب قراءتها في كلّ سنة منهجية، وعدد حصص التدريس المخصّصة لها سنويًّا؛ ويتراوح العدد بين أثر أدبي عالمي واحد تُخصّص له عشر حصص دراسية في كلٍّ من السنة الأولى الثانوية، والسنة الثانية الثانوية- فرع العلوم، والسنة الثالثة الثانوية- فرعي الآداب والإنسانيات والاجتماع والاقتصاد، وأثرين اثنين في السنة الثانية الثانوية- فرع الآداب والإنسانيات تُخصّص لكلٍّ منهما عشر حصص دراسية، بينما يخلو محتوى السنة الثالثة الثانوية- فرعي العلوم العامّة وعلوم الحياة من أيّة إشارة إلى المطالعة.

في النصّ الثاني التفصيلي، الصادر بالتعميم رقم 29/ م/ 1997 تاريخ 1 آب 1997، وردت إشارات متفرّقة إلى المطالعة كآليّة إجرائيّة في إطار وسائل التدريس والأنشطة المقترحة لتنفيذ محتوى المادّة، فجرت الإشارة إلى «مطالعة حرّة وموجّهة (تلخيص)» في السنة الرابعة (ص23)، و«مطالعة حرّة وموجّهة (تلخيص، تقرير، بيان)» في السنة السابعة (ص33)، و«قراءة الأثر ثمّ مشاهدته فيلمًا سينمائيًّا في حال توافره والمقارنة بينهما» في المرحلة الثانوية. (ص52).

وفي إطار «التوجيهات العامّة في طرائق التدريس»، ورد ذكر المطالعة في خطوات تدريس فرع «الثقافة الأدبية» الستّ التالية: مرحلة التمهيد للمطالعة، مرحلة المطالعة الأولى، مرحلة المطالعة المعمّقة، مرحلة التلخيص، مرحلة التقييم، ومرحلة تثبيت الأفكار. وذُكرت التقنيات المعتمَدة في كلٍّ من هذه المراحل. (ص122).

وهكذا، يتبيّن لنا أن الدور الذي تشغله المطالعة في النصّين، التأسيسي والتفصيلي، آنفي الذكر، هو دور هامشي، فقد خلت مناهج رياض الأطفال والحلقتين الأولى والثانية من مرحلة التعليم الأساسي من أيّة إشارة إلى المطالعة، واقتصرت مناهج الحلقة الثالثة على قراءة كتابين اثنين في كلّ سنة منهجية وإعداد بيان مطالعة لكلٍّ منهما. واقتصرت «الثقافة الأدبية العالمية» في المرحلة الثانوية على قراءة أثر واحد في بعض السنوات، وأثرين اثنين في إحداها، فيما خلا منهج البعض الآخر من المطالعة.

المطالعة في الواقع

لا توجد بين أيدينا إحصاءات نقيس بها حجم المطالعة في المدارس الرسمية، وفي ضوء هذا النقص، قمنا بإجراء إحصاء بسيط، على طريقة العيّنة العشوائية، شمل عشر مدارس رسمية، خلصنا، بنتيجته، إلى أن نسبة التلامذة الذين يستعيرون الكتب من المكتبة المدرسية تتراوح بين 33 و81 % من تلامذة المدرسة، وأن معدّل القراءة السنوي يتراوح بين 0.69 و3.12 كتابًا للتلميذ الواحد.

وعلى صعوبة تعميم هذه النتائج، وإمكانيّة احتمالها الخطأ، فإنّها تشير إلى أنّ وضعيّة المطالعة في الواقع لا تقلّ عنها تردّيًا وتهميشًا في النصّ ما لم تزد عليها. تتقاطع هذه الوضعية مع ما يذهب إليه بعض الباحثين التربويين من «أنّ المطالعة هي النشاط الذي يحظى بالاهتمام الأقلّ من المعلّمين والمتعلّمين على حدٍّ سواء؛ فالمتعلّمون لا يطالعون وذلك لأن تعليم المعلّمين اللغة العربية لا يقوم على استثمار المطالعة في التعلّم...».[6] ولإعطاء صورة واضحة عن المطالعة في الواقع المدرسي، لا بدّ من إضاءة سريعة لها على مستوى الموارد المادّية، والبشرية، ومناهج التعليم.

- على المستوى الأول، ثمّة أبنية مدرسية كثيرة تفتقر إلى القاعة المناسبة للمكتبة، وثمّة مدارس تفتقر إلى المكتبة نفسها، وفي حال وجود هذه الأخيرة، ثمّة نقص كبير في الكتب المتعلّقة بأدب الأطفال لقلّة المنتَج في هذا النوع الأدبي، ولافتقار الموجود منها إلى المواصفات المناسبة للأطفال في الشكل والمضمون، فهي كثيرًا ما تفشل في إثارة اهتمام المتعلّمين، ومخاطبة واقعهم، واستدراجهم إلى عمليّة القراءة.

- على المستوى الثاني، تفتقر مدارس كثيرة إلى المدرّس المناسب للاهتمام بشؤون المكتبة المدرسية تنظيمًا وتعزيزًا وتطبيقًا، وكثيرًا ما تُسنَد حصص المكتبة الدراسية إلى مدرّس عاجز عن التدريس لأسباب عمرية أو صحّية، أو تُسنَد إلى أحدهم في إطار إكمال نصابه القانوني. من جهة ثانية، إنّ انخراط المتعلّمين في وسائل التواصل الاجتماعي وتطبيقاتها المختلفة يُصادر الوقت المتبقّي لديهم للقراءة، ويحول دون ممارستها.

- على المستوى الثالث، إنّ إغراق المتعلّم بعدد كبير من المواد التعلّمية والكتب المدرسية، وعدم تخصيص حصص دراسية للمطالعة في إطار البرنامج الأسبوعي، وعدم وضع علامات على هذا النشاط، وعدم وجود حوافز معنوية أو مادية للقيام به، هي عوامل تُسهم في تردّي واقع المطالعة المدرسية.

على أن هذه الصورة القاتمة لا تحجب وجود محاولات جدّية في بعض المدارس لتعزيز المطالعة؛ فتحتفل بالأسبوع السنوي للمطالعة، أوتستضيف كتّابًا يحاورون المتعلّمين في تجاربهم الكتابية، أو تخصّص جوائز رمزية للمطالعة في المدرسة، أو تُقدّم الكتب هدايا للتلامذة المتفوّقين...غير أن هذه المحاولات، على أهميّتها، تبقى في إطار المبادرات الفردية، ولا ترقى إلى مستوى الظاهرة العامّة.

خاتمة

إن تعزيز المطالعة المدرسية يقتضي تخصيص هامش أوسع لها في مناهج التعليم، بحيث تشمل جميع الحلقات والمراحل، وتُخصَّص لها حصص دراسية في البرنامج الأسبوعي، كما في الأعمال اللّاصفّية. ويقتضي توافر الموارد المادية المناسبة من قاعة، ومكتبة، وكتب مناسبة في كلّ مدرسة. ويقتضي اختيار المدرّس المناسب وتدريبه للقيام بأعمال المكتبة، وتوافر الحوافز المادّية والمعنوية للمتعلّمين لممارسة هذا النشاط. وفيما يتعدّى الإطار المدرسي، ثمّة أدوار للبيت، والمجتمع، والجمعيات، ووسائل الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي، من شأن القيام بها الإسهام في تعزيز المطالعة المدرسية والعامّة، وهي أدوار لا يتّسع المقام لذكرها في هذه العجالة، وبذلك، تتكامل الجهود المبذولة في المدرسة مع تلك خارجها، لتعزيز عملية المطالعة، فإن حصل ذلك نكون قد حقّقنا المرتجى، وإن لم يحصل فحسبُنا شرف المحاولة.

---

1 - جريدة أخبار الأدب، العدد 1160، 8 أكتوبر 2015.

2 - اسكندر داغر، حدثني ميخائيل نعيمة، دار نلسن، ص51.

3 - موقع علوم العرب.

4 - مناهج التعليم العام وأهدافها، المرسوم 10227 تاريخ 8 أيار 1997.

5 - التعميم رقم 29 / م / 97 تاريخ 1 آب 1997..

6 - د.أنطوان صياح، المجلة التربوية الصادرة عن المركز التربوي لبحوث والإنماء، العدد 56، آب 2014، ص 63.

د. رفيف رضا صيداوي*

أزمة قراءة أم أزمة مجتمعات

الكلام على «أزمة قراءة» في لبنان والوطن العربي ليس تفصيلاً، بل يطرح قضيّة إشكاليّة تترابط فيها جملة من الأسئلة التي يحيل بعضها إلى بعضٍ آخر. إذ تتنوّع الأسئلة التي تدور في مدار هذه القضية في سياق إشكالي يبدأ من الاختلالات البنيوية التي تعاني منها المجتمعات العربية بعامّة، ولبنان بخاصّة، في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بحيث تدور «أزمة القراءة» كمشكلة فرعيّة في إطار هذا الاختلال «الماكروي» العام، ناهيكم بتقاطعها مع مشكلة صناعة الكتاب من جهة، وتوزيعه وبيعه من جهة أخرى. إذ تتضمّن دائرة صناعة الكتاب: حلقة الكتّاب والمؤلّفين والمترجمين، حلقة دور النشر والناشرين، حلقة المطابع ومؤسّسات الطباعة، حلقة محترفات التجليد. في حين تتضمّن دائرة توزيع الكتاب وبيعه: حلقة الموزّعين وشركات التوزيع والشحن، حلقة مكتبات البيع والمكتبات العامّة، حلقة المستهلكين وجمهور القرّاء.

بناءً عليه، وبخلاف ما يفترضه منطق التحليل عند تناول «أزمة القراءة» أو المطالعة، لن يتمّ، في حدود هذه الورقة، تناول كلّ الحلقات المرتبطة بالكتاب العربي، كما لن يتمّ الانطلاق من معطيات إحصائيّة حول معدّلات القراءة ونسبها على أهمّيتها، بل ستكون الانطلاقة من

---

* باحثة في العلوم الاجتماعية في مؤسسة الفكر العربي

معطيات ومؤشّرات ماكرويّة تخصّ الوضع الثقافي والعلمي في الوطن العربي ككلّ. وقد استُقيَت هذه المعطيات من تقرير «التكامل العربي سبيلاً لنهضة إنسانيّة»، الصادر عن الإسكوا في العام 2014، في محاولةٍ للكشف عن جانبٍ من الجوانب السوسيولوجيّة لأزمة القراءة أو المطالعة في لبنان والوطن العربي.

أولاً: على صعيد التعليم

يشير تقرير الإسكوا المذكور إلى أنّ ثمّة تعليماً حكومياً ضخماً وتعليماً خاصّاً «يتفاوتان من حيث الموارد، ونوعيّة التعليم، وجودة العمليّة التعليميّة، وكذلك من حيث مستوى الطلّاب، وما يكتسبون لاحقاً من مؤهّلات لا تتيح لهم فرصاً متساوية في سوق عمل تشكو الكثير من النواقص»(ص 152). كما يشير التقرير نفسه أيضاً إلى أنّ أنماط التعليم «لا تزال قاصرة عن تزويد المتعلّمين بالمهارات المطلوبة لرفع الكفاءة الإنتاجية ولبناء القدرة على الابتكار، وخصوصاً في اكتساب المعرفة وإنتاجها، والتعلّم الذاتي، والتحليل والنقد، وهي مهارات أساسيّة لكلّ عمل إبداعي»(ص 153)، فضلاً عن «انخفاض مستوى التحصيل العلمي في البلدان العربية عند المشاركة في الاختبارات الدولية»(ص 153).

ثانياً: على صعيد البحث العلمي والتطوير التكنولوجي

على هذا الصعيد، يشير التقرير إلى أنّ نصيب العرب من النشر العلمي في العالم يقلّ عن 1 في المائة، بينما يمثّلون أكثر من 4 في المائة من سكّان العالم، ولا يظهرون على خريطة تسجيل البراءات بما يتناسب مع المقدرة البشرية والمالية (ص 153). وفي ما يتّصل بالنشر، «يقلّ عدد الأبحاث المنشورة من مصر، أكثر البلدان العربيّة إنتاجاً، عن نصف الأبحاث المنشورة من إيران، وعن ثلث الأبحاث المنشورة من إسرائيل، وعن ربع الأبحاث المنشورة من تركيا»(ص 154).

ثالثاً: على صعيد اللغة العربيّة

أمّا في ما يتعلّق باللغة العربيّة، فثمّة شبه غياب لسياسات جدّية باتّجاه حماية اللغة العربية والارتقاء بها. بحيث «لا تُتَّخَذ إجراءات فعّالة لتشجيع استخدامها في الإعلام

المسموع، وتلقينها واستيعابها في جميع مراحل التعليم، والإقبال عليها في القراءة وكسب المعرفة والابتكار والإبداع. وهذا يؤدّي إلى انخفاض نسبة القراءة وانحسار المعرفة في المجتمعات العربية» (ص155).

قد تبدو هذه المعطيات والمؤشّرات بعيدة عن أزمة القراءة بحجّة أنّ التعليم أو النشر العلمي مثلاً يحتاجان إلى مستويات تعليميّة وتقنيّة وتكنولوجيّة عالية يبلغها الفرد عبر الدراسة المدرسيّة والجامعيّة، وإلى أنّ لغة العلم والتطوّر الحضاري هي اللغة الإنكليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية، وإلى ما هنالك من حجج الغاية منها تبيان أنّ القراءة، بمعنى قراءة الكتب لزيادة معارف الفرد أو ثقافته العامّة (القراءة الاطّلاعيّة)، ليست المعيار الوحيد للثقافة. أمّا بعض الحجج التي يسوقها مؤيّدو هذه القناعة فهي التالية:

1 . القراءة بمعناها العام، أي كوسيلة استقبال معلومات الكاتب أو المرسل للرسالة واستشعار المعنى، والتي تتمّ عن طريق استرجاع المعلومات المسجّلة في المخّ، يمكن أن تتشكّل من حروف وأرقام ورموز وأشياء أخرى غير اللغة أيضاً مثل قراءة النوتات الموسيقية أو الصور التوضيحيّة وما شابه.

2. لئن كانت غاية القراءة هي التثقيف، فإنّ حضارتنا العربيّة والإسلاميّة قامت على مبدأ «اقرأ»، أي على حضارة غنيّة بموروثها الشفاهي الذي أغنى التداول المعرفي بين الناس، بحيث إنّ ارتفاع نسب الأمّية لم يتناقض بالضرورة مع سعة اطّلاعهم الثقافي. إذ إنّهم، وبسبب هذه الحضارة، يكتسبون هذه الثقافة أطفالاً، من خلال مختلف أطر التلفّظ الأنتروبولوجية الناقلة لقيم الجماعة وهويّتها. فحتّى وقت ليس ببعيد، يعود إلى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان الأمّي يحفظ أجزاءً من ملاحم وأساطير وأبيات شعريّة فصيحة، ومقاطع غنائيّة أو تراتيل ومدائح نبويّة فصيحة أيضاً.

3. لعبت بعض الوسائط الإعلامية مثل الإذاعة ثمّ التلفزيون دوراً في توسيع الأطر الثقافية لعموم الناس في الماضي القريب، فيما يشكّل الحاسوب والإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة (والكلام هنا لا يتناول الكتاب الإلكتروني بالطبع)، وسيلة إعلامية وتربوية وتثقيفية، ومصدراً ثقافيّاً يمكنه أن يكون ناقلاً إيجابياً للمعلومة أكثر قدرة أحياناً على النفاذ

إلى عقل الفرد وكيانه (وخصوصاً عقل الطفل وكيانه) من الكتاب.

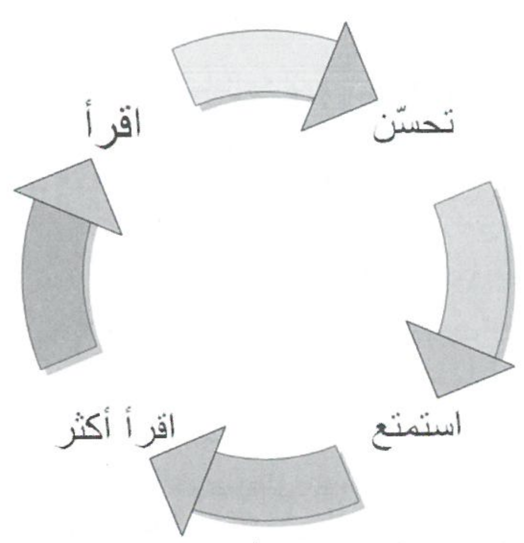
لكن على الرغم من أنّ هذه الحجج تنطوي على قدر من الصحّة، إلّا أنّ أصحابها يتناسون نوعيّة المعلومة التي تنقلها وسائل الاتصال الحديثة والبرامج التلفزيونية (الأرضيّة منها والفضائيّة) والدعايات والإعلانات والفنون...إلخ من جهة، كما يغفلون، من جهّة ثانية، عن أنّ القراءة العالِمة المؤدّية إلى الثقافة العالِمة، المواكبة للتطوّر الحضاري والتكنولوجي والمعرفي، هي قراءة تحتاج إلى إعداد وتأطير غائبَين في مجتمعاتنا، وأنّ غيابهما ما هو إلّا تعبيرٌ عن أزمة مجتمعاتنا التي تعيد إنتاج مظاهر سلبيّة متفرّقة، تبدأ بالأمّية ولا تنتهي بانخفاض معدّلات القراءة فحسب. أمّا في ما يتعلّق باللغة العربيّة، فيتناسون أنّ إهمالها وعدم الارتقاء بها، يكرّس الدونيّة التي ينظر إليها الآخر إلينا (من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية...وصولاً إلى النواحي الثقافية والعلميّة والتكنولوجيّة) والتي، أي الدونيّة- أضحت المعيار الذي ننظر به إلى أنفسنا بدل أن نعتزّ بلغتنا ونتنج بها. وهذا ما جعل حتّى الكتابة بها أمراً عسيراً. وقد أشار إبراهيم الأيوبي إلى «الأمّيين المقنّعين» في الوطن العربي، على الرغم من انخفاض عدد الأمّيين مؤخّراً إلى 70 مليوناً (حوالي 35% من السكّان)، على اعتبار أنّهم – أي الأمّيين المقنّعين – «الأشخاص الذين لا يملكون القدرة على كتابة خطابات أو أوراق جادة دون مساعدة، والذين إذا أُخذوا بعين الاعتبار سيرفعون رقم الأمّيين إلى 100 مليون أمّي أي 45% من السكّان (إبراهيم الأيوبي، «مفهوم ومعطيات عن الأمّية في الوطن العربي»، الحوار المتمدّن، العدد: 2197 - 2008 / 2 / 20). فما هي مظاهر أزمة مجتمعاتنا تلك؟

بعض مظاهر أزمة مجتمعاتنا

إنّ مجتمعاتنا لا توفّر الفرص للمواطنين منذ صغرهم ليكتسبوا عادة المطالعة ويتّصلوا بالكتاب، وفقاً للمعادلة التالية المثبتة علمياً:

1 - كلّما قرأتَ كلّما تحسّنت قراءتك. وكلّما تحسّنت قراءتك كلّما أحببتَها. وكلّما أحببتَها كلّما قرأتَ أكثر. فالرحلة إذاً دائرية تبدأ بالقراءة وتعود إليها.

2 - كلّما قرأتَ كلّما زادت معارفك. وكلّما زادت معارفك صرتَ أذكى.



المصدر: هنادا طه تامير، مؤتمر حركة التأليف والنشر في العالم العربي، «كتاب يصدر.. أمّة تتقدّم»، مؤسّسة الفكر العربي، بيروت، 1-2 أكتوبر 2009.

في موازاة ذلك، نلاحظ أنّ القراءةَ تتمّ لغرض التحصيل العلمي المدرسي والجامعي، أكثر من ميلها إلى أن تصبح حاجة إنسانيّة وفكريّة ومعرفيّة، أي طبيعة ثانية وعادة لا يمكن التخلّي عنها. ففي دراسة «صناعة الكتاب في لبنان»، (مؤسّسة البحوث والاستشارات، 2010)، اعتبرت الغالبية العظمى من المستجوَبين (91.3 %) أنّ القراءة مهمّة كثيراً للأطفال، مقابل نسبة قليلة ممّن اعتبروا أنّ القراءة غير مهمّة أبداً أو هي مهمّة بدرجة قليلة للطفل (8.7% من العيّنة فقط)؛ غير أنّ 72.7% من هؤلاء أعربوا عن مخاوفهم من أنّ القراءة قد تأخذ من وقت دروس الطفل. هذا في الوقت الذي بيّنت فيه الدراسة نفسها مدى تأثير اكتساب عادة القراءة في الصغر على انتظام مزاولتها في مختلف مراحل الحياة الأخرى. فأكثرية مَن لم يقرأ في صغره (61.4%) لم يكن يقرأ زمن إجراء الدراسة. في المقابل 44% ممّن كان يقرأ في صغره هو من القرّاء الدائمين زمن إجراء الدراسة.

ففي لبنان خصوصاً، وفي العديد من البلدان العربية بشكل عام، ننظر إلى التعلّم على أنه وسيلة أساسية للترقّي الاجتماعي وإلى المطالعة كوسيلة لتحسين النتائج المدرسية. فلا عجب أن يعزف الشباب عن المطالعة فور الانتهاء من حياتهم المدرسية، كما بيّنته دراسة ميدانية في خمس دول عربية قامت بها مؤسّسة next page في العام 2001. ولا عجب إن كانت القراءة الوظيفية وحدها تتمتّع بتقييم إيجابي في المجتمع: «المطالعة تتوقّف بين 15 و19 سنة في

العالم العربي، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بترك المدرسة أو بالتحوّل إلى معاهد وتخصّصات مختلفة. فغالبية الذين يتوقّفون عن القراءة بين 15 - 19 سنة لا يعودون أبداً إليها (مود إسطفان هاشم، «هل ما زال للمكتبات العامة دور في نشر المعرفة وترسيخ عادة المطالعة؟»، بحث منشور في كتاب قضايا الكتاب العربي رؤى وشهادات، ط1، بيروت، مؤسّسة الفكر العربي، 2009).

وبالتالي، لا يكفي تكرار الإحصائيّات التي ترد في عدد كبير من الأدبيّات الخاصّة بمشكلات القراءة لدى الطفل العربي، تارةً بإسنادها إلى منظّمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) وتارةً أخرى إلى تقارير التنمية البشرية، بغية إثبات ضآلة الوقت المخصّص للقراءة «الاطّلاعية» عند الطفل العربي، أي التي لا يحتسب فيها وقت القراءة المدرسية، والتي لا يتجاوز الوقت المخصّص لها 6 دقائق في العام لدى الطفل العربي، وحيث حجم الكتب المخصّصة لهذا الطفل هي 400 كتاب في السنة، مقابل 13260 كتاباً للطفل الأميركي و3838 للطفل البريطاني و2118 للطفل الفرنسي و1485 للطفل الروسي..إلخ. بل لا بدّ من معالجات هيكليّة للبنى الاجتماعية العربيّة التي تفرز مشكلات وظواهر يبدو معها وكأنّ الأزمات، على اختلافها، وسواء أكانت أزمة قراءة أم غيرها، مرتبطة بطبيعة هذه الشعوب ليس إلاّ. وهو ما يكرّس المقاربات الثقافويّة والعنصريّة في قراءة الظواهر الاجتماعيّة. إذ غالباً ما تتردّد مقولة «أنّنا أمّة لا تقرأ ... وإن قرأت لا تفهم ... وإن فهمت لا تعمل». في حين أنّ سلوكيّات هذه الشعوب مرتبطة بطبيعة البنَى الاجتماعيّة المولّدة لها. فما تمّ ذكره عن ارتباط القراءة بالتحصيل العلمي فقط، غير منفصل عن مشكلات المناهج التربويّة وأزمات التعليم التي أشرنا إليها في مقدّمة هذه الورقة من جهة، ولا عن غياب السياسات الثقافيّة من جهة ثانية.

غياب سياسة ثقافية على المستوى الوطني

في لبنان خصوصاً، وفي العديد من البلدان العربية بشكل عام، نلاحظ غياب دور الدول في تشجيع الممارسات الثقافيّة (بناءً على سياسات ثقافيّة)، وخصوصاً القراءة، التي تسهم في الانتشار الأفقي للكتاب وتغذيته وتنميته، بقدر إسهامها في تنمية عدد القرّاء المحتمَلين، وبالتالي إسهامها في التنمية الثقافية المُستدامة. حتّى أنّ معظم الدول العربية لم تشهد وزارات خاصّة بالثقافة إلاّ في مرحلة متأخّرة عن ولادتها في العالم (في لبنان تأخّرت ولادة وزارة الثقافة حتّى العام 1994). هذا على الرغم من الأهمّية الملموسة لتلك السياسات وما

تتضمّنه من أنشطة مشجّعة على القراءة.

من الأمثلة على ذلك مشروع مكتبة الأسرة كرافعة لحملة القراءة للجميع في مصر والأردن، ومشروعات الترجمة الطموحة في كلّ من مصر (المركز القومي للترجمة) والإمارات العربية المتّحدة (مشروع كلمة للترجمة)...إلخ. بحيث يبيّن الجدول التالي- على سبيل المثال لا الحصر- كيف زاد عدد المكتبات في المدارس، منذ حملة سوزان مبارك «القراءة للجميع» في مصر عند بداية تسعينيّات القرن العشرين.

جدول: زيادة عدد المكتبات في المدارس، منذ حملة سوزان مبارك «القراءة للجميع»- جمهورية مصر العربيّة.

السنة	عدد المكتبات	الزيادة	نسبة الزيادة
1991	521	-	**السنة الأولى**
1992	5450	4929	946 %
1993	6170	720	13.2 %
1994	6992	822	13.3 %
1995	8070	1078	15.4 %
1996	8187	117	1.4 %
1997	9236	1049	13.8 %
1998	9553	317	3.4 %
1999	9671	118	1.2 %

المصدر: مؤتمر حركة التأليف والنشر في العالم العربي، «كتاب يصدر.. أمّة تتقدّم»، مؤسّسة الفكر العربي.

غياب الأجواء المؤاتية للقراءة

تتمثّل الأجواء المؤاتية للقراءة بالمستوى التعليمي للأفراد ولأهاليهم، وبنسبة الأشخاص الذين يقرأون في الأسرة وبين الأصدقاء، والنصح بالقراءة من قبل العائلة والأصدقاء، والتحدّث عن الكتب المقروءة مع أحد أفراد العائلة أو الأصدقاء أو الزملاء...

وقد بيّنت دراسة «صناعة الكتاب في لبنان» - التي سبق ذكرها- أنّ نصف المستطلَعين في بيئة مؤاتية (51.2%) كانوا يقرأون كثيراً في صغرهم، فيما أكثرية الذين يعيشون في بيئة غير مؤاتية (54.8%) كانوا يقرأون قليلاً أو لا يقرأون نهائياً في صغرهم.

هذه الأجواء التي بات يهدّدها التلفزيون ووسائل التسلية الإلكترونية السمعية البصرية، وبقدر ما تتشكّل وتنمو بدورها من التُربَة التربوية التعليمية، تحتاج في المقابل إلى دعم السياسات الثقافية على المستوى الوطني. بحيث نصل بذلك إلى تداخل العوامل المُعيقة للقراءة ومساندتها بعضها بعضاً. وتتدعّم رؤيتنا الاجتماعيّة الكلّية إلى مشكلة القراءة(المناقِضة منهجياً للرؤية الثقافويّة والعنصريّة) بنتائج الاستفتاء الرقميّ العلميّ الذي أجراه فريق بحثيّ تقنيّ متعاون مع مؤسّسة الفكر العربي حول المحتوى الرقمي العربي(2010). فقد جاءت نتائج عمليات التواصل الرقمي لجمهور الإنترنت العربي مع الكتب والكتّاب لتُظهر أنّ هناك شغفاً عالياً من طرف الشباب العربي بالقراءة واقتناء الكتاب: إذ بلغ متوسّط عمليات التواصل الرقمي المذكور مع موقع «خير جليس في الأنام» 18 مليوناً و846 عملية بحث في الشهر (العام 2009). كما أظهرت عمليات التواصل الرقمي هذه إقبالاً مهمّاً على كتب الرواية والقصّة مشكّلةً ما يقرب من نصف عمليات البحث الإجماليّة في مشهد الثقافة وفروعها. ما يعني أنّ ما نفتقر إليه هو الإصلاح البنيوي لأطر التعليم والتربية واللغة العربية المحفّزة على القراءة كونها الرافد الأساسي للإنتاج الفكري والعلمي والثقافي بقدر ما يشكّل هذا الإنتاج بدوره رافداً محفّزاً على القراءة. هذه القراءة التي تبقى هي الأساس والأجدى، سواء بشكلها الورقي أم الإلكتروني، بعكس كلّ الإدّعاءات عن فوائد الوسائط الثقافية الأخرى. ونذكّر في هذا الصدد ما جاء في كلام المفكّر الفرنسي الشهير بيار بورديو في كتيّب له حمل عنوان «في التلفزيون» (Sur la télévision)، في أنّ الكلام على فوائد التلفزيون، ينطوي على الكثير من الغشّ الخداع. إذ إنّ التلفزيون هو خلافاً لذلك، وسيلة تشويه إعلامي وأداة لتبليد الذهن. كما أثبت عدد من الصحافيين العاملين في القطاع الإعلامي المتلفز أنّ التلفزيون أداة لتشويه الإعلام والثقافة.. بدءاً من كتاب «التلفزيون يبعث على الجنون» (La Télé Rend Fou) الذي وضعه الصحافي الفرنسي برونو مازور Bruno Masure في العام 1987، وصولاً إلى كتاب «التلفزيون يجعلنا مجانين» (La télé nous rend fous!) لأربعة صحافيّين هم جان فيليب توسان وسيرج جونكور وفينسان سيبيد وجان سيغورا (Jean-Philippe Toussaint، Serge Joncour، Vincent Cespedes، Jean Segura) في العام 2008. هذا فضلاً عن الدراسات القيّمة التي أجراها مركز البحوث العلمية الفرنسي(CNRS) بالتعاون مع مركز علوم الدماغ والإدراك (Centre de neurosciences cognitives)، والتي أثبتت أنّ ما يجعل من التلفزيون عدواً قاهراً للقراءة، هو السهولة والراحة التي يقدّمها للمشاهد، فهو لا يطلب منه شيئاً مقابل ما يقدّمه له، في حين أنّ القراءة تتطلّب من القارئ جهداً معيّناً.